الشعرية
مقاربة كشفية في المفهوم والاصطلاح

أ/ ملاّس مختار
قسم اللغة والأدب العربي-جامعة جيجل

مـن المصـطلحات الّتـي شـاعت فـي النقـد المعاصـر مصـطلح الشـعرية (Poétique)، وهـو مصـطلح غربـي قـديم حـديث، قـديم مـن حيـث أنـه اسـتعمل لأول مـرّة علـى يـد الفيلسـوف اليونـاني أرسـطو فـي كتابـه الموسـوم بـ <<بوطيقـا>> أو "فـن الشـعر"، وحـديث مـن حيـث أنّـه أخـذ دلالات متعدّدة عند لنقـاد المعاصـرين، وخاصّـة مـنهم أصـحاب المدرسة الروسية وحلقة براغ(1).

إنّ الشعرية، كما هي في نقـدنا المعاصـر، إنّمـا تحـاول الكشـف عن ذلك السحر الغريب والعجيب الّذي تكتسبه اللغـة عند خروجها من منـزل الوجـود، وتحرّرهـا مـن سـلطة النظـام، وانفتاحها على عالم الحركـة والتغيـر، تتفتّـق سـيولتها وتأخـذ حيويّتها. ويعترف (جان كوهن) للشّـعرية بأنّهـا "أصـبحت اليـوم تعدّ شكلا من أشكال المعرفة، بل بعدا من أبعادها"(2).

وقد حدّد (كوهن) مجال الشعريّة بالمظهر الخـارجي أو الشكلية للكتابة أو كما قال مسألة العبـارة لا المحتـوى الّـذي يتغيّر(3). ومن ثمّ فإنّه يضعها جنبـا إلـى جنـب مـع اللسـانيات الّتي ينصب اهتمامهـا علـى الجانـب الخـارجي أيضـا، بيـد أنّـه يفـرّق بينهمـا مـن حيـث "أنّ الشّـعريّة لا تتّخـذ اللغـة العامـة موضوعا لها بل تقتصـر علـى مـن أشـكالها الخاصـة، والشـاعر بقوله لا بتفكيره وإحساسه، إنّه خالق كلمـات لا خـالق أفكـار، وترجع عبقريّته كلّها إلى الإبداع اللغوي"(4).

مـن كـلام (كـوهن) نلمـس ذلـك الارتبـاط الوثيـق بـين الشـعرية والبنيويـة حيـث لا تقـف الشـعرية، فـي تعاملهـا مـع النّصوص على الجانـب السـطحي، وإنّمـا تنفـذ إلـى أعماقهـا، وتحاول أن تستخرج جوهرها ولآلئها، وتبرز مكمن جمالها وسرّ نشّوتها. وعليه فقد جعـل (كـوهن) الشـعرية البنيويـة "تحتـلّ

درجة أعلى من الصياغة الشكلية، إنّها تبحث عن شكل من الأشكال، عن عامل مشترك للشّعر"(5).

وإلى جانب (كوهن) نجد من النقاد الغربيين الّذين خاضوا في مجال الشعرية الناقد الفرنسي ذا الأصل الروسي تيزفيان تودروف (Tzvtn Todorov) الّي كان كتابه الموسوم بـ << الشعرية Poétique >> ثورة عارمة في هذا المجال. وقد راح هذا الكتاب يتنطّس عن موضوع الشّعريّة، مؤكّدا أنّه ليس العمل الأدبي في حدّ ذاته، وإنّما "خصائص هذا الخطاب النوعي الّذي هو الخطاب الأدبي... وهو يعني أنّ هذا العلم الشّعريّة لا يعني بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى يغني بتلك الخصائص المجرّدة الّتي تصنع فرادة الحدث الأدبي؛ أي الأدبية"(6).

وحتّى يحدّد مجال الشّعرية ويوضّح معالمه، راح (تودروف) يقيم مقارنات مختلفة بين الشّعريّة وغيرها المناهج الأخرى، وخاصة المنهج التأويلي؛ إذ يبيّن أنّ الشّعريّة "قد جاءت لتضع حدّا للتّوازي بين التأويل والعلم في حقل الدّراسات الأدبية، وخلص إلى القول بأنّ العلاقة بين الشغرية والتأويل هي بامتياز علاقة تكامل... فهدف التأويل هو الأعمال المفردة الّتي تكوّن بمجموعها الأدب، بينما يكون موضوع الشّعريّة هو القوانين الّتي تتحكم في الأدب وأشكاله وتنوّعاته"(1). أمّا عن علاقة الشّعريّة بالبنيوية، فـ(تودروف) عكس (كوهن) يضع حاجزا صلدا بينهما، ذلك أنّ البنيويّة منهج له قواعده وأسسه وطرائقه الخاصة، في حين أنّ الشّعرية هي مجرّد طريقة نظر للحقائق(7).

أما على الساحة النقدية العربية، فإنّنا قد وجدنا اختلافا وتباينا في ترجمة هذا المصطلح، فاعتمد كلّ من (أدونيس) و(كمال أبو ديب) على المصطلح المتعارف عليه وهو مصطلح الشّعريّة، فكان كتاب <<الشّعريّة العربية>> لأدونيس محاولة جديدة لفكّ النقاب عن ذلك السحر العجيب الّذي يكتنف الأدب الجاهلي(8). أمّا (أبو ديب) فقد ألّف كتابه << في الشّعريّة >> محولا ولوج عالم النشوة الجمالية

المنبعثة من أعماق الكلمات المغروسة في هذه البناءات العجيبة. وقد أوضح لنا من خلال هذا الكتاب الهدف من الشّعريّة قائلا: " الشّعريّة خصيصة علائقيّة؛ أي أنّها تجسّد في النّص لشبكة من العلاقات الّتي تنمو بين مكوّنات أوليّة سمتها الأساسية أنّ كلاّ منها يمكن أن يقع في سياق آخر دون أن يكون شعريّا. لكنه في السّياق الّذي تنشأ فيه العلاقات في حركته المتواشجة مع مكونات أخرى لها السمة الأساسية ذاتها، يتحوّل إلى فاعلية خلق للشّعريّة ومؤشّرا على وجودها"(9).

وإذا كان كلّ من (أدونيس) و (كمال أبو ديب) قد تبنيّا مصطلح الشّعريّة المعروف فإنّ نقادا آخرين خالفوا ذلك من بينهم يمنى العيد الّتي اعتمدت في دراستها المعنونة بـ << معرفة النصّ>> على مصطلح << الأدبية >> كمقابل للمصطلح الغربي<<Poétique>>، فهي عندما تقارن بين الواقعية والدراسة الأدبية الّتي تهتمّ برصد العلاقات الدّخلية للنّصّ تقول: "مع الواقعية تصير دراسة المرجع هي دراسة النّصّ: النقد. ومع الأدبيّة تصير دراسة العلاقات الدّخلية هي الدراسة؛ هي النّقد. وبين النظريتين يبقى النّصّ يطرح وجوده السؤال(10). والأمر نفسه بالنسبة للغذامي الّذي اعتمد على مصطلح آخر هو << الشاعريّة >>، وهذا حتّى نتمكّن – حسب رأيه- من الابتعاد عن ذلك الخلط الّذي يمكن أن يحدث بين الشّعريّة والشعر. ولقد حدّد دور الشاعريّة في تشريح اللغة وإبراز كوامنها، حيث "يتولّد من رحمها جنين المعنى الإنساني المطلق. واللغة، عندئذ، تحلّ في وجودها الشاعر محلّ المؤلّف، فتلغيه، وتؤسّس على أنقاضه وجودها الّذي يتحرّك ككيان حيوي جديد في أفق العطاء الإنساني الصافي"(11).

أمّا عبد السّلام المسدّي فإنّه يرى أنّ ترجمة المصطلح الغربي(Poétique) ليس هو الشّعريّة، ذلك أنّ هذه الكلمة إنّما تربطنا أكثر بالشّعر. في حين أنّ دلالتها الأصلية لا تقف عند هذا الحدّ، وإنّما تشمل الأدب بشكله النثري

والشعري. لهذا كانت أوفق ترجمة -حسب رأيه- هي <<الإنشائية>> الّتي "تهدف إلى ضبط مقولات الأدب من حيث هو ظاهرة تتنوّع أشكالها وتستند إلى مبادئ موحّدة، فلا يكون الأثر الأدبي بالنسبة للإنشائية سوى ممارسة تستجيب لمقولات الأدب، وتتميّز نوعيّا بما يغذّي النظرية الإنشائية نفسها"(12).

لكنّ مع هذه الاختلافات الملاحظة بين النقّاد في ترجمة مصطلح (Poétique) إلاّ أنّ مصطلح الشّعريّة يظلّ هو المصطلح الأكثر تداولا عند النقّاد والدارسين من بقية المصطلحات. وبذلك تفرض هذه الترجمة هيمنتها على باقي الترجمات الأخرى بالرّغم من العيوب الّتي يمكن أن تلاحظ عليها.

الإحالات:

1- فاضل تامر: اللغة الثانية، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان/ الدار البيضاء- المغرب، ط1(1994)، ص101.
2- جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الوالي ومحمد العمومة، دار توبقال للنشر- الدار البيضاء- المغرب، ط1(1986)، ص90.
3- المرجع نفسه، ص38.
4- المرجع نفسه، ص38.
5- المرجع نفسه، ص38.
6- فاضل تامر: اللغة الثانية، ص106.
7- المرجع نفسه، ص38
8- المرجع نفسه، ص38
9- ينظر أدونيس: الشّعريّة العربيّة، دار الآداب – بيروت- لبنان، ط1(1989).
10- كمال أبو ديب: الشّعريّة، مؤسسة الأبحاث العلميّة، بيروت- لبنان، ط1(1987)، ص14.
11- يمنى العيد، في معرفة النصّ، دار الآفاق الجديدة- بيروت – لبنان، ط3(1985)، ص64.
12- عبد محمّد الغذامي: الخطيئة والتكفير، دار سعاد الصبّاح- الكويت، ط3(1993)، ص110.
13- عبد السلام المسدّي: الأسلوب والأسلوبية، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا/تونس، ط3(لات)، ص171.